المشروع النهضوي الإبراهيمي؛ قراءة في خطابه الأخلاقي

Al-Ibrahimi's Renaissance Project: Interpreting his Moral Speech

د. فريدة مولى

جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/03/11 **تاريخ القبول**: 2020/03/18

ملخص

ركّز الإبراهيمي في مشروعه النهضوي على الأخلاق، إذ أدرجها ضمن لوازم النهضة الحقة التي تقوم على الدين والأخلاق والعلم،وقد وجّه في خطابه الأخلاقي – سعيا لتجسيد هذا المشروع– رسائل توجيهية للمعلمين والمربين والقائمين على أمور التربية والتوجيه والبناء الفكري والنفسي، إيمانا منه بأن نهضة الأمم مرهونة بجهود كل هؤلاء في مجال تقويم الأخلاق وتزكية النفوس وبناء العقول وصقل الأذواق،كما خاطب عقول شباب الأمة الإسلامية من خلال رسائله الأخلاقية التوجيهية لتكون لهم دليلا وزادا في الدنيا والآخرة.

الكلمات المفتاحية: ثوابت الأمة، النهضة، الدين، التربية، الأخلاق، شباب المستقبل.

Abstract:

In his renaissance project, Al-Ibrahimi focused on ethics, as ethics, science and religion are, according to him, the building pillars of a true renaissance. In his Ethical Speech, he sought to materialize this project, Al-Bashir Al-Ibrahimi made directions for teachers, and all those involved in education, on the importance of intellectual and psychological construction guidance; believing that nations' renaissance are subject to the efforts of all of them in the field of ethics, purification of souls, building of minds and refinement of tastes. He also addressed the minds of Islamic nation's youth through his moral guiding messages to provide them with evidence and help in this world and the hereafter.

***Keywords*:** Pillars of a nation, renaissance, religion, education ethics, future generations.

يفصح المنجز الإبراهيمي- من نصوص مثقلة بمقولات ترسّخ نسقا فكريا ووعيا معرفيا- عن مقصدية الذات الواعية بمآزق الأمة وسقطاتها وخيبات شبابها، فقد اقتحم الإبراهيمي بنصوصه التي يلفّها بيان اللغة وفحولتها مقولات البنية الذهنية لجماعته التي تبنّى أفكارها وآمن برسالتها فجسّدها فعلا وقولا وكتابة وسلوكا من خلال مشروعه النهضوي الذي احتضنته ودعّمته وسعت سعيا حثيثا إلى تحقيقه.

إن الحرص على الحفاظ على ثوابت الأمة الإسلامية: دينها وقرآنها ولغتها، أخلاقها الإسلامية وقيمها الروحية العالية، هو الذي دفع بجماعته إلى رفع شعار الإصلاح الديني والفكري والاجتماعي بالاهتمام بالتربية والتعليم والتقويم والتكوين وتعليم العامة وتنويرهم ونشر شمائل وآداب وأخلاق الأوائل، وقد اعتمدت الحركة الإصلاحية التي تمثلها جمعية العلماء المسلمين منذ بدء نشاطها أسلوب الإصلاح وبخاصة إصلاح العقيدة الذي هو أساس كلّ إصلاح وجسّدوه في كتاباتهم وأقوالهم وأفعالهم، وكان الإبراهيمي أشدهم إصرارا على ضرورة التمسك بالدين القويم، الدين الإسلامي لما فيه من شرائع عادلة وأخلاق قيمة قرّرها الهداة من الأنبياء والمرسلين والحكماء المصلحين "إن الاسلام في جوهره لإصلاح عام منّ الله به على العالم الإنساني بعد أن طغت عليه غمرة حيوانية عارمة اجتاحت ما فيه من فطرة صالحة ركّبها رب العالمين"[1].

كما دعا إلى ضرورة العودة إلى النهج السليم، نهج وأخلاق الأوائل من الأتقياء والصالحين، والنهل من القرآن الكريم الذي وسع حياة الأبدية، والتدبر في معانيه والتخلق بأخلاقه، فسرّ القرآن ليس في حفظه حفظا جافا وتلاوته تلاوة عابرة على الأموات أو للاستشفاء به من العلل الجسمانية "وإنما السرّ كل السّر في تدبرّه وفهمه وفي اتباعه والتخلّق بأخلاقه"[2]، وكان يذكّر في كلّ مناسبة بضرورة التمسك بالقرآن والتنوّر به واتخاذه نبراسا ونورا وحجة وبرهانا وبيانا: "وكتابُ ربِّكم أيُّها الشَّبابُ هو البُرهَانُ والنُّور، وهو الفَلَجُ والظُّهورُ، وهو الحجَّةُ البَالِغةُ، والآيَةُ الدَّامِغةُ، فلا يُزهِّدنَّكم فيه زِنديقٌ يُؤوِّلُ وجَاهِلٌ يُعطِّلُ ومُستَشرِقٌ خَبِيثُ الدَّخلَةِ، يتَّخِذُه عِضين، ليَفتِن الغَافِلين، ويُلبِّسَ على المستَضعَفِين"[3].

تبنّت جمعية العلماء المسلمين المشروع الإبراهيمي الذي يقوم على الدين والأخلاق والعلم، وقد أدرج الإبراهيمي في قانونها الأساسي الذي حرّره في نفس سنة تأسيسها مشروعه النهضوي محدّدا فيه شروط النهضة الجزائرية، هذه النهضة المنشودة التي لا تتحقق إلاّ بتضافر الجهود خاصة في مجال التربية والتعليم، وهو حرص ينبع من إيمانه الشديد بأن نهضة الأمم مرهونة بالجهود التربوية والفكرية والعلمية التي يبذلها العلماء والمثقفون والمعلمون والقائمون على أمور التربية والتوجيه والإرشاد والبناء الفكري والنفسي، فإصلاح المجال التعليمي والتربوي مسؤولية جبارة تقع على كاهل المعلمين والمربين ومكوّنوا وحراس الجيل الذي يعدّه هو ومن معه من المصلحين لمجابهة تحديات المستقل ومقارعة خطوبه: "أنتم حراس هذا الجيل –الخطاب موجّه إلى المعلمين– والمؤتمنون عليه والقوامون على بنائه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة ، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية ... ربوهم على استخدام المواهب الفطرية، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة"[4].

وقد تواترت رسائله التوجيهية للمعلمين ليعوا ثقل الأمانة ويفقهوا المهام المنوطة بهم والتي تتجاوز تلقين العلوم والمعارف إلى ممارسة الفعل التربوي الذي يرتكز على تقويم الأخلاق وغرس القيم الإنسانية والخلقية والروحية في نفوس الناشئين، وتزكية النفوس وتربية العقول وصقل الأذواق: "احرصوا على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، وهي أنّ الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته من نقص العلم، وإنّما خاب أكثر ما خاب من نقص الأخلاق"[5].

ولأنّ خيبة جيلهم نجمت عن سوء أخلاقهم فقد ألحّ على المعلمين أن يكونوا قدوة للمتعلمين يحتذون بهم في أخلاقهم وسلوكاتهم، لأنّ العلاقة الطيبة بينهم والروح السائدة أثناء التدريس هي الأولى والأهم من تلقين المعارف والعلوم بطريقة آلية جافة تفتقر إلى التواصل والتفاعل: "ليس المهم المادة العلمية التي يفرضها البرنامج والكتب، إنّما المهم هو ما تفيض به نفوس المعلمين على نفوس تلاميذهم من أخلاق طاهرة قويمة، يحتذونهم فيها ويقتبسونها منهم، وما يبثّونه في أرواحهم من قوة وعزم، فلو كانت البرامج تكفي في التربية لكان كل عالم مربياً"[6] وقد جعل من شخصه المعلم المربي نموذجا للاقتداء، إذ مارس

التدريس ولقّن العلم والدين والأخلاق مذ كان مدرسا في المدينة المنورة ثم في دمشق وبعدها في الجزائر بمدينة سطيف ثم بتلمسان.

وإذ عوّل في مشروعه على المربين والمعلمين فقد حمّل أيضا المثقفين مسؤولية إنجاز وإنجاح مشروعه النهضوي لأنهم في نظره "حفظة التوازن في الأمم وهم القومة على الحدود على أن تهدم، وعلى المحرمات أن تنتهك، وعلى الأخلاق أن تزيغ، وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حدّ نفسه، يراهم العامي المقصر فوقه فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته، ويراهم الطاغي المتجبر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث والاستبداد"[7].

ركّز الابراهيمي في مشروعه النهضوي على الأخلاق وأدرجها ضمن لوازم النهضة الحقة، فهي اللازم الثاني بعد لازم الدين الذي يقتضي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ليليها لازم العلم، وعدّها ضمن المجالات التي تشكل الميراث الفكري والقيمي للأمم فهي من الأمتعة –كما يسميها– التي ترثها الأجيال لأنها من تحدّد شخصية الفرد وسلوكاته وأفكاره، لذلك شدّد على المؤتمنين على أمور التعليم والتربية والعاملين في حقل تكوين النشء على أن تكون الأخلاق من ضمن المجالات التي ينبغي التركيز عليها، لأنّ التربية تقتضي تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك أولا قبل بناء الفكر وتثقيف العقل، بل إنّ الحاجة إلى الأخلاق والفضائل أشد وأكد من الحاجة إلى العلم، يقول مخاطبا شباب المستقبل: "لا يضرّكم ضَعْف حظِّكم مِن العلْم إذا وَفُرَ حظُّكم مِن الأخلاق الفاضلة، فإنّ أمتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل، إنّ حاجتها إلى الفضائل أشدّ وأوكد من حاجتها الى العلم لأنها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم، ولكن من نقص في الأخلاق"[8].

إنّ كلّ مفردة في نظر "أومبرتو إيكو" نص متوقع أو محتمل وأي "نص هو تمطيط لمفردة واحدة أو أكثر"[9]. وقد تناسلت النصوص الإبراهيمية التي جعلت من مفردة "الأخلاق" مقولة محورية شكّلت بؤرة لسيرورات دلالية لمؤولات فاعلة تمتح من التاريخي والثقافي والديني والإنساني، فمفردات من قبيل: إصلاح، تربية، تزكية، تقويم، تهذيب، بناء أخوة، إنسانية، وحدة، تآزر.. وغيرها كثير كلّها علامات دالة إحالية في بناء منضد يجسد

هذه المقولة بكلّ أبعادها ويعكس في الحين ذاته نسقا فكريا ووعيا جماليا للذات الإبراهيمية الواعية التي استشرفت المأزق الأخلاقي في حقبة من حقب طمس الهوية والقضاء على ثوابت الأمة ومقوماتها، فالإصلاح في نظر الإبراهيمي كما تجلّيه نصوصه يقتضي الأخلاق والأخلاق تقتضي التربية وتقويم السلوك، بناء الفكر وتثقيف العقل من أجل بلوغ الكمال الإنساني، وتطرح الأخلاق مسألة تربية الإنسان وتنشئته تنشئة سليمة، وما تعنيه التربية في نظر الفيلسوف الفرنسي "بول ريكور" هو جرّ الإنسان خارج المجال الذي افتقد ما هو جوهري، بمعنى تخليصه ممّا تعلق به جراء انصياعه لكلّ ما هو مُنافٍ لجوهره النّقي، الخيّر وحمله على العودة إلى أصول نفسه السماوية بكلّ ما تحمله من صفات محمودة وأخلاق كريمة بتربية أخلاقية وتنشئة روحية وتثقيف جوهره باحترام مبادئ الدّين والمجتمع وقيّمهما فالافتراض المسبق لكلّ أخلاق–بحسبه– هو وجود شرخ بين ما له قيمة وما ليس له قيمة والإنسان قادر على الأمرين: الصواب والخطأ، الخير والشّر، الحسن والقبيح"[(10)].

إنّ الذي يختار كفة الخير والصواب والحسن هو الذي يسعى جاهدا إلى استرجاع نفسه وجوهرها الصافي، هو الذي يخالف أهواء نفسه الأمارة ويستجيب لدعوة نفسه اللّوامة، هو الذي يسلك طريق التوبة ويخرج الكراهية من قلبه ليحل محلّها الحب والخير والفضيلة، وتحل النّفس المطمئنة المتنورة بنور الحق والفضيلة، المتخلقة بأخلاق الإسلام كالقناعة والتواضع والشفقة على الخلق، والإيثار وحسن الظنّ بالخالق والخلق، والإخلاص والمسارعة إلى الخيرات محل النفس الأمارة.

وإن كانت الأخلاق هي المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني لتنظيم حياته وتحديد علاقاته بغيره لتحقيق غايتة الوجودية على أكمل وجه، فإن أخلاقياته تتجلى في كل سلوكاته وأقواله وأفعاله التي يأتيها، فأفعاله هي التي تحدد إنسانيته ومكانته وقيمته في مجتمعه، ومتى بلغ الاعوجاج الخلقي حدّه الأقصى فإنّه لا ينفع تقويمه بأخلاقيات السطح كما يسميها الدكتور "طه عبد الرحمان"، وهي الأخلاقيات التي وضعها الحداثيون لدفع أسباب الشر الذي لحقهم بفعل مستجدات العصر، بل تنفعه أخلاقيات لها من القوة ما يجاوز قوة الحداثة، أخلاقيات تنأى عن السطح الذي وقفت عنده الحداثة وتغوص في

أعماق الحياة والإنسان، تلكم هي أخلاقيات الدين "وأي المعاني الخلقية التي تستطيع استيعاب هذا الامتداد للحياة، وهذا الاتصال للإنسان من المعاني التي ينطوي عليها الدين الإلهي؟ أليس يسعى هذا الدين إلى صلاح الحياة الإنسانية في الحال وفلاحها في المآل فما بالك بدين كالإسلام الذي جاء ليكون تماما وكمالا لهذه المعاني الروحية"[11].

تلكم هي الأخلاق الإسلامية التي دعا إليها الابراهيمي في زمانه، وسبقه إلى ذلك ثلة من المصلحين في العالم الإسلامي في فترة الحملات الاستعمارية والحركات التبشيرية والكيانات الاستيطانية التي زرعت في قلب الأمة الإسلامية لتنصير المسلمين وإبعادهم عن دينهم ولغتهم وقيمهم، لأن الأخلاق المستمدة من الدين هي أساس أي نهضة منظمة مثمرة، وهي حاجة ملحة في زمن فسدت فيه السرائر وضعفت فيه العزائم، واستحكمت الأهواء الطفيلية والأذواق المتطرفة "وأما اللازم الثاني وهو الأخلاق فنحن أحوج ما نكون إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه المبادئ العاملة على هدم الأخلاق الخيرية وكثرت فيه الأذواق المتطرفة التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة، وإذا كان عقلاء الأمم التي هي أرقى منا بكثير تشكو فساد الأخلاق في أممها فمن نحن وأين نكون؟ فالواجب على اجتماعنا الذي ننشد تكوينه أن نبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا، ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية، لأنّ لنا أساسا نبني عليه ولا يعسر جد العسر إحياؤه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة والتي نجد معظمها في القرآن في أوضح عبارة وأوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من تراث"[12].

لم يدّخر الإبراهيمي جهدا في سعيه لإيقاظ الهمم وتهذيب النفوس وتقويم الأخلاق لأنه كان يعي تماما أنّ أضعف الخلق مَن ضعف عن ردّ شهواته، وأقوى الخلق مَن قويَ على ردّها، لذلك وجب على الإنسان في تصوره أن يجاهد نفسه الأمارة بالسوء ويتحرّر من عبودية الشهوات، أن يتخذ من مبدأ التزكية والتطهر النفسي سبيلا لتحقيق الكمال الأخلاقي، تزكية النفس وتطهيرها من الأدران والرذيلة وتنميتها بزيادة الأوصاف المحمودة والفضيلة، هذا المبدأ الذي تضافرت نصوص الكتاب والسنة في تبيان أهميته ومكانته العالية

ومنزلتة الرفيعة، ومن أبرز هذه النصوص قول الله جلّ وعلا في سورة "الشمس": ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ مبدأ أرسى دعائمه الرسول الكريم (ﷺ) وسرى على هديه ونوره الأوائل والأواخر من المعتصمين بحبل الله، مبدأ يتنوّر به كل من يؤمن بدور الأخلاق والفضيلة والقيم الروحية والتربوية في بناء أمم متحضرة راقية سلوكيا وروحيا وفكريا.

وقد ربط الإبراهيمي علة البلاء والشقاء الذي يتخبط فيه الإنسان بالأهواء النفسية التي تضعف البصيرة وتجعل المرء عبدا لشهوات ورغبات بدنه "والسبب الحقيقي لهذا البلاء المتناسل هو تحكيم الهوى على العقل، وأهواء النفوس إذا غلبت غطّت على الحقائق وأحالت النور ظلاما واليقين وهما والحق باطلا"[13]، فالصراع الذي يعيشه الإنسان مع أهوائه ورغباته صراع يعيشه مع نفسه التي يتجاذبها طرفان، طرف يشدّها إلى الخير والفضيلة وبالتّالي إلى السعادة الدائمة وطرف يجذبها إلى الشّر والخضوع لأهواء الجسد وشهواته المادية وبالتّالي إلى اللذّة المؤقتة ولكنّها اللذّة المشينة، المرفوضة على جميع المستويات. وهذا ما أراد ان يوصله الإبراهيمي إلى الشباب الراضخ لمغريات الحياة المادية الغربية التي استهوتهم وأنستهم أصول دينهم وأساس سعادتهم، هذا ما أراد أن يغرسه في عقول الشباب حين استشعر بلاء موت نخوتهم وذوبانهم في حضارة الغرب المستعمر، حين تفطن إلى تقاعسهم عن أداء الواجب وابتعادهم عن هداية الدين: "ليعلم أبناؤُنا – مُعلِّمو هذا الجيل– أنَّنا – ولا مِنَّةَ عليهم– مَهَّدنا لهم كَثِيرًا مِن العِقابِ، وذلَّلنا لهم كَثِيرًا مِن الصِعَابِ، وحلَلنا كَثِيرًا مِن العُقدِ الاجتمَاعِيةِ التي عَقدَها البُعدُ عن هدَايةِ الدِّينِ والجَهلِ بحقَائِقِه، ووَطَّأنا لهم أكنَافَ النُّفوسِ المستَعصِيةِ عن العِلم، المستَعصِمةِ بالجَهلِ، فأَقبَلت على العِلمِ بعد أن كانت عنه مُعرِضَةٌ... ووَجَّهنَاها إلى سعَادَةِ الحيَاةِ وشَرفِ الحيَاةِ وجِدِّ الحيَاةِ بعد أن كانت قانِعَةً مِنها لهزلِها وسفَاسِفها وتوافِهِها"[14].

إن سعادة الحياة وشرفها مقرونة حسب فيلسوف الأخلاق أرسطو بالأخلاق والفضيلة والتأمل والحكمة، في اختيار الفعل الملائم واتباع أوامر العقل ونواهيه لتجنب مختلف الشرور

التي تنجم حسب "أفلاطون" من عدم الإنسجام بين قوى النّفس المختلفة وهذا ما يؤكده التحليل النّفسي العيادي، وتؤكده أيضا الديانات السماوية المختلفة، فبلوغ السعادة في نظر "أفلاطون" لا يكون إلا بسيطرة القوة العاقلة على القوتين الشهوانية والغضبية، وبالتخلص من الظاهر المحسوس وما يرافقه من فوضى مادية وجسمية ، كما وضع "ديكارت" فيلسوف الشّك أُسسا للأخلاق تؤدي في نظره إلى الفضيلة، وبالتالي إلى السعادة ومنها طاعة الله وقوانين البلاد ومغالبة النّفس والعمل على تغيير الرغبات، واعتبر "سبينوزا" في كتابه الأخلاق "Ethique" أنّ الخير حرية، والشّر عبودية، وما العبودية إلاّ خضوع الإنسان لأهوائه لذلك عليه بمغالبتها، وهو يرى أنّ معرفة الله وحبه هما الغاية القصوى التي ينبغي أن تتجه إليها جميع أفعالنا، على أنّ الإنسان الغارق في لذّات الجسد لا يستطيع أن يعلم هذه الحقيقة، وقد أشار "ليبنز LEIBNIZ" في أبحاثه عن العدل الإلهي "التيوديسية Théodicée" إلى أنّه في محبة الله يكمن الهناء الأعظم والخير للبشر الساعين إلى السعادة وليس هناك ألّذ من محبة من يستحق الحب فهذا الحب يولد لذة في الأعمال الصالحة التي تبرز الفضيلة[15].

يلتقي إذن رجل الدين والمصلح والفقيه بالفيلسوف في رؤية أخلاقية للوجود لا مكان فيه للشّر والرذيلة لأن الدعوة إلى الأخلاق والفضيلة يحقق المنفعة الفردية والجماعية، ويسهم في ترقية المجتمعات ويقلّل من وطأة الشّرور المنتشرة جراء انتهاك حرمة القوانين والثوابت الدينية والمقدسات ومبادئ الدين والأخلاق، فالكمال الأخلاقي يكون باكتساب الفضائل والأخلاق الكريمة وهو أعلى ما يكمل الإنسان وأعظم ما يُمتدح به المرء ومصداقه مدح الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم (ﷺ) في قوله : ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(القلم،آ4)، ومكانة الأخلاق معروفة في رسالة محمّد (ﷺ) الذي عبّر عنها في قوله: «**إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»، ومعروفة أيضا في الديانات السماوية الأخرى، ولا يختلف كل هؤلاء في كون الأخلاق هي التي تخلص البشر من كدر الجهل وعفن الفساد ونيران الشّر بشتى أشكاله وأنّه من الفضيلة يأتي حب الخير وينشأ حب السلام، حب الحياة، ومن الرذيلة يأتي حب الشّر وينشأ تدمير الحياة.

وما أشبه حال الأمة الإسلامية – في نظر الإبراهيمي– فيما آلت إليه من انحلال اجتماعي وفساد خلقي وابتعاد عن القيم الروحية والإنسانية بحالها قبل أن يسطع نور الإسلام على ربوعها وينبت فيها حماة الأرض والعرض، والعلم والسلم، والحكمة والوحدة: "وإن أول أمتكم شبيه بآخرها عزوفا عن الفضائل وانغماسا في الرذائل، فلم يزل بها هذا القرآن حتى أخرج من رعاة النَّعم رعاة النّعم، وأخرج من خمول الأمية أعلام العلم والحكمة فإن زعم زاعم أن الزمان غير الزمان، فقولوا: ولكن الإنسان هو الإنسان.. فلا تلمسوا الوحدة في الآفاق الضيّقة ولكن التمسوها في الدّين، والتمسوها من القرآن تجدوا الأفق أوسع، والدار أجمع، والقوى أوفى"[16]، فحتى وأن تبدلت الأزمان وتغيرت أنماط العيش وتطورت أساليبه وتلونت بألوان الحضارات فإن الأمم دائما يحميها ويبنيها ويغيثها أبناؤها الصادقون لا المارقون، الصالحون لا المفسدون، أنصار العقل والحكمة والروح لا عبدة المادة والحس وأعداء الفكر.

إن أخلاق الفرد هي تاجه، هي من تصنع منه رجل المواقف والشدائد، الرجل العاقل الحازم الذي له في كل صالح نصيب لأن العاقل هو من يجاري العقلاء في أرفع المنازل والحازم هو من لا يرض لنفسه أخس المنازل "وأخس المنازل للرجل منزلة القول بلا عمل،وأخس منها أن يكون الرجل كالدفتر يحكي ما قال الرجال وما فعل الرجال دون أن يضرب معهم في الأعمال الصالحة بنصيب،أو يرمي في معترك الأراء بالسهم المصيب"[17] فجميع الأخلاق الدُنّية والعيوب النفسية كالإدعاء والتقوّل والكبر والغضب والحقد والحسد والطمع والغرور وغيرها تُسيء للشخص قبل أن تُسيء لغيره، وما أسرع هلاك من لا يعرف عيوب نفسه أو من تغافل عنها "إن تغافل الإنسان عن عيبه لمن دواعي الغرور، والغرور من دواعي التمادي في الغي، والتمادي في الغي من موجبات الهلاك، وهي نقيصة أعظم من فقد الإحساس؟"[18]، فالغرور من الأهواء التي تنشأ من الشعور بالقيمة حسب "بول ريكور" حيث يُرجع فكرة "الشعور بالقيمة" إلى أهواء طفيلية كالغرور والادّعاء والغيرة، لأنّ تكوين الذّات البشرية تكوين متبادل من خلال الرأي والإحترام والاعتراف بالآخر كقيمة وجودية، ولكن سرعان ما تنشأ في هذه العلاقة القائمة على الاعتراف المتبادل طفيليات

مثل أهواء الغرور والإدّعاء والغيرة، فالقيمة التي يعتقدها الشخص في نفسه قد تكون خدعة أو ظنًّا في غير محله، وهو ما يؤدي إلى الغرور خاصة عندما يواجَه من قبل الغير بالتجاهل و عدم الإحترام، فيعطي نفسه قيمة فوق ما تستحق، ويتحوّل إلى العدوانية والحقد والانتقام وهي كلها ردود فعل على ذلك التجاهل والاحتقار من قبل الغير، وكلها من أنواع الشّرور التي نشهد آثارها المؤذية للآخرين.[19] وهذه الشرور وغيرها تفرزها الأنانيات الفردية والجماعية والأصوليات التي تنغص على البشرية حياتها.

وجّه الإبراهيمي في نصوصه المنضودة باحترافية الكَثِيرِ مِن النصائح والوصايا لشباب وَطَنِه وأُمَّتِه لتكُون لهم دليلا وعَونًا وزادا في الدنيا والآخرة، وصايا تذكّرهم وتحثّهم على التحلّي بفضائل الأخلاق كالصدق لأنّ من كان الصدق وسيلته كان الرضا من الله جائزته والإخلاص لأنه من لزم طريق المعاملة على الإخلاص أراحه الله من الدعاوى الكاذبة والصبر لأنّ الصبر من أخلاق الرجال، والعفو لأنّ الله عفُو، والعدل لأنّ العدل بين النّاس طريق الاستقامة، والأخوة باسم الإنسانية التي تجمعهم "..الإنسان أخو الإنسان، فهذه الجملة على قلة ألفاظها ترمي إلى معنى لو ذهب أبلغ الناس إلى تحليله وشرحه لانتهى إلى العجز ووقف دون الوصول إلى القصد، مؤدى هذه الجملة الصريح عقد الأخوة بين أفراد البشر بموجب الإنسانية التي هي حقيقة سارية في كل فرد، ومقتضى هذه الأخوة أن يشارك الإنسان الإنسان في جميع لوازم الحياة سرورا وحزنا لذة وألما مشاركة معقولة تنتهي إلى حدود لا تتعداها، بحيث يعلم العالم الجاهل ويرشد النبيه الغافل ويواسي الغني الفقير ويقع التبادل بين الناس في كل جليل وحقير، ومن مقتضى هذه الأخوة المساواة في الحقوق البشرية العامة.."[20]. كما حثّهم على الاعتزَازِ بدِينِهم والتَّدَبُّرِ في كتَابِ رَبِّهم وتحصيل الآداب والعلوم والحفاظ على ميراث أجدادهم: "يا شباب الإسلام ... وصيتي إليكم أن تتصلوا بالله تديّنًا، وبنبيّكم اتّباعًا، وبالإسلام عملًا، وبتاريخ أجدادكم اطِّلاعًا، وبآدابِ دينِكم تخلُّقًا وبآدابِ لُغَتِكم استعمَالًا، وبإخوانكم في الإسلام ولِدّاتكم في الشبيبة اعتناءً واهتمامًا فإن فعلتم حُزتُم مِن الحياةِ الحظَّ الجليل، ومِن ثوابِ الله الأَجرَ الجزيل، وفاءت عليكم الدُّنيا بظِّلها الظَّليل"[21].

إنّ نصوصه الدرر المحمّلة برسائل أخلاقية توجيهية إلى شباب الإسلام فيها الكثير من الدّقة والرفعة، الحكمة والحنكة، الصدق والعمق، العذوبة والرّقة التي تتخللها الغلظة في بعض ثناياها خاصة حين يتعلق الأمر بإصلاح الأخلاق وتقويم السلوك وإيقاظ النفوس وشحذ الهمم وقرع الأسماع: "أَي شبَابَ الإسلام حملة الأمانة ومستودع الآمال، وبناة المستقبل وطلائع العهد الجديد، خُذُوها فصِيحَةً صَرِيحَةً لا تَستَّرُ بجِلبَابٍ، ولا تتَوَارَى بحِجَابٍ، إنَّ علَّتَكم التي أَعيَت الأَطبَاءَ، واستَعصَت على حِكمَةِ الحُكمَاءِ، هي مِن ضَعفِ أخلاقِكم ووَهنِ عَزَائِمِكم. فدَاوُوا الأخلاقَ بالقُرآن تَصلُح وتَستَقِم، وأُسُّوا العَزائِمَ بالقُرآنِ تَقوَ وتَشتَدُ"(22).

خاتمة

دأب الإبراهيمي مع من معه من علماء الإصلاح على تأدية رسالتهم على أكمل صورة وأحسن وجه، فقد حرص من خلال مشروعه النهضوي – وهو مايجليه خطابه الأخلاقي– على إشاعة التعليم وتعاليم الدين، وتهذيب الأنفس ونشر قيم التسامح والتعاون والإخاء والمحبة، هادفا إلى خلق مجتمع متوازن متماسك، وفرد خلوق متعلم متواضع وقنوع، يحسن الظن بالخلق والخالق، سوي ومسؤول، فاضل وفاعل في بيئته، يبني ولا يهدم، يحب ولا يكره، يسامح ولا يحقد، يوحّد ولا يفرّق، يبذل ولا يبخل، يسعى ولا يكّل، تلكم هي صفات شباب المستقبل الذي تمناه الإبراهيمي، المتسلحون بشمائل الأوائل من الأتقياء والأشراف الأفاضل، لأن الابراهيمي بمشروعه الأخلاقي كان يؤمن أشدّ الإيمان أن كمال الأفراد من كمال الفرد، وكمال الفرد في حسن مقاله وصدق أفعاله، في صبره وحلمه وكرمه، في عفّته وعفوه وصدقه، في شهامته وإخلاصه وحسن خلقه.

الهوامش والإحالات

(1)– محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ط1، مكتبة الغرباء الأثرية، دت، ص19.

(2)– نفسه، ص18.

(3)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، جمع وتقديم أحمد طالب الابراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، بيروت، ص 271.

(4)– الآثار، ج3، ص272.

(5)– نفسه، ج3، ص264.

(6)– نفسه، ج3، ص268.

(7)– نفسه، ج1، ص16.

(8)– نفسه، ج3، ص296.

(9)– أومبرتو إيكو: التأويل بين السميائية والتفكيكية، ط1، تر وتقديم سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000، ص 75.

(10)– بول ريكور، الإنسان الخطاء، تر: عدنان نجيب الدين، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2003، ص211.

(11)– طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط4، المغرب، لبنان، 2009، ص26.

(12)– الآثار، ج1، ص52–53.

(13)– نفسه، ج1، ص60

(14)– نفسه، ج2، ص110.

(15)– ينظر: عدنان نجيب الدين: مسألة الشّر في فلسفة بول ريكور، ط1، دار الفكر اللبناني لبنان، 2008، ص53–58.

(16)– الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ص24.

(17)– الآثار، ج1، ص56.

(18)– نفسه، ج1، ص56.

(19)– بول ريكور، الإنسان الخطاء، ص182.

(20)– الآثار، ج1، ص59

(21)– نفسه، ج4، ص121.

(22)– الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ص23.